عود على بدء (٢ - ٣)

خسارة الطبقة الوسطى

طارق الخضيري

لايخفى على أي متابع للأحداث مهما كانت درجة إلمامه بالشؤون السياسية العالمية ، أن الولايات المتحدة الأمريكية (وصنيعتها إسرائيل) وضعت نفسها خارج مدار أعراف الإنسانية وفوق القانون الدولي التي طالما تشدقت بتبنيها له ، حتى قبل أن تتضح فضائح وماسي سجن أبي غريب. ومثل هذا بحد ذاته يستدعي مناصبة العداء وحتى حمل السلاح لمواجهة غطرسة وتحديات أمريكا كدولة استعمارية. ولكن أي تصرف غير مدروس بهذا الشأن لن يعود بالنتائج الإيجابية لعراق اليوم ، إذ لابد أن يتضمن العمل استراتيجية تعتمد الواقع والمنطلق لمستقبل العراق.

فالمناداة بشن هجمات فردية على جنود الاحتلال، وعلى كل مواطن يحاول التفاهم مع قيادة قوى الاحتلال و مسايرة بعض برامجها من أجل خلق أجواء ملائمة للتفاوض بغية قيام دولة وطنية تنسجم ومتطلبات جميع فئات المجتمع العراقي، هو أمر يؤخر جلاء المستعمر ويؤدي إلى تذمر عند أبناء الشعب. فأعمال القنص وتفجير المنشآت التي تقوم بها مختلف العناصر ومنها المجموعات الوطنية المؤمنة بضرورة مقاومة الاستعمار، راح ضحيتها عدد كبير من أبناء الشعب الأبرياء بضمنهم عدد من المواطنين الذين اضطروا لأسباب معيشية أو آمنوا بضرورة العمل في مؤسسات الدولة خلال هذه المرحلة، حتى لو لم تدنهم تلك المجموعات بحجة التعاون مع قوى الاحتلال. وهذا ما أدى إلى ردود فعل في الشارع العراقي، خاصة حين تؤدي بعض الهجمات إلى تخريب واسع في المرافق الحياتية والاقتصادية كالأبنية ومولدات الطاقة وخطوط المياه وأنابيب النفط. ومع أن الكره لأمريكا قد ازداد باستطالة مدة الاحتلال دون تقدم ملموس في الحالة الاقتصادية أو تحسن الحالة الأمنية كي تتهيأ الظروف المؤاتية للاستقرار وبناء الدولة العتيدة، إلا أن الدعم الذي كانت تتأمله مجموعات مقاومة الاحتلال من خلال ذلك لم يكن بالدرجة المطلوبة بسبب التصرفات الهوجاء لبعض فلولها. في هذا المجال، يتساءل الناس عن خلفية مجموعات المقاومة وأهدافها الحقيقية ومدى إدراك قياداتها للتنسيق فيما بينها ومن ثم التقائها حول مشروع مشترك واضح وثابت لمستقبل العراق بكل أطيافه. بالواقع هناك نفور وتخوف من حقيقة ومآرب الجهات الداعمة بقوة لما تقوم به تلك المجموعات، وخاصة الفلول التي تقوم بالعمليات الانتحارية والتي لم تكن معروفة في العراق. وبهذا الخصوص يؤكد غالبية المواطنين أن خطف الأطفال واحتجاز الأفراد من أجل الحصول على فدية، وحالات الاغتصاب، ليست من شمائل البغدادي الذي اشتهر بالنخوة وحماية الجار وأبناء المحلة (أو الطرف).

أن تضاؤل حجم الطبقة المتوسطة وتأثيرها على الأحداث في عراق اليوم عما كان عليه الأمر في سبعينيات وحتى ثمانينيات القرن الماضي يمثل ظاهرة لها أبعاد سلبية على تطور المجتمع العراقي. ويبدو أن هناك طبقة جديدة قد ترعرت خلال عهد النظام السابق وبدعم منه، تنعم بمزايا معيشية مستحدثة دون أصالة حضارية وبأقل إدراك لشؤون المجتمع المدني، تجاوبا مع مآرب قيادة ذلك النظام. فتصرفات أبناء تلك الطبقة في الشارع البغدادي تتمثل بالسطحية في الحديث وعدم إدراك المراد من مصطلحات وأعراف ذات مغزى إنساني كالحرية والديمقراطية. فهناك من يرى الديمقراطية تعني التحرر من القيود والأحكام المدنية حتى لو أدى إلى الاستهتار بالقانون أو عدم الانضباط سواء في الطريق أو المخزن أو الدائرة، الفعل الذي يترجم إلى انعدام اللياقة في التعامل. كما أن نمط حياة هذه الطبقة، بما في ذلك حدود العلاقات الاجتماعية بما فيها حفلات الأعراس الاستعراضية وشكل بيوت السكن التي أراد البعض أن يحاكي بمظهرها قصور صدام ولكن بصورة لا تنم عن مستوى معماري عملي الأداء وذي تصاميم مقبولة الشكل والجاذبية، ماهي إلا دلالة على السلوك المفتعل لهذه الطبقة. ويبدو أن قسماً كبيراً من أبناء هذه الطبقة التي صفقت لصدام في السابق أخذت تتنصل من علاقاتها بنظامه. وها هي الآن تريد الإفادة من الوضع الحاضر بما فيه الانفتاح على السوق الأجنبية لإرضاء شهيتها من متطلبات الحياة، إسوة بباقي أبناء الشعب الذي حرم خلال العهد السابق من جني السيارات والأدوات البيتية التي أخذت تظهر في الأسواق والشوارع الآن. فأكشاك البيع منتشرة على الأرصفة وفي عرض الشارع مما يجعل المرور أحياناً صعباً. أما المواد والأدوات المعروضة للبيع والتي يختطفها الناس بشكل نهم، فقد دخلت البلاد دون رقابة وأحياناً لا يعرف مصدرها.

إن تقلص حجم الطبقة المتوسطة ذات الإصالة المعهودة أو تدني تأثيرها على الأحداث، لايعني إنتهاء دورها بالكامل. فهي ما زالت قائمة، تترقب وتحاول لم شملها للنهوض بمسؤولياتها كما يلاحظ من سلوك أبنائها في دوائر الدولة والمؤسسات الثقافية ومرافق الخدمات الصحية والهيئات الفنية والتجارية، على الرغم من عدم صحوة أجواء العمل بصورة مثلى. كما أخذ عدد كبير من أبنائها المثقفين يساهم في المناقشات الدائرة في المنتديات السياسية والاجتماعية بما فيها تجمعات النقابات المهنية والاجتماعية والهيئات السياسية، ومنها المناقشات التي تدور بشأن مرحلة الحكم الانتقالية ودور منظمة الأمم المتحدة في تشكيله بدلا من هيمنة إدارة التحالف على الفعاليات السياسية، وموضوع حقوق المرأة وقانون الأحوال المدنية..الخ. أما موضوع الانتخابات الذي تنادي به الحوزة الدينية للطائفة الشيعية (الجعفرية) وتؤيده أغلب الأحزاب الكردية في حين تعارضه بعض تجمعات الطائفة السنية لأسباب تتعلق بموقعهم سياسيا، يبدي المثقفون تحفظات بشأنه تتمحور حول ثلاث نقاط أساسية؛ الأولى، عدم إمكانية القيام بعملية الانتخاب في الظروف الأمنية الحالية؛ والثانية، عدم توفر الأجواء الكفيلة لتنظيم أسلوب واقعي مقبول لعملية الانتخاب بسبب عدم تواصل العرف السياسي ومؤسساته المدنية في المجتمع العراقي منذ أمد بعيد؛ والثالثة، صعوبة إجراء تعداد سكاني لتسمية الناخبين المؤهلين حسب مفهوم معترف به في فترة قصيرة. فعدم إدراك غالبية الشعب لمفهوم الديمقراطية والتعددية بالمعنى الصحيح، سيجعل عملية الانتخابات عرضة لتأثير القيادات الدينية والأثنية (العرقية) التي تستأثر عاطفيا بعقول الأكثرية، وغالبيتهم من الطبقة غير المتعلمة، لانتخاب مجلس يتبنى المبادئ الأساسية الثابتة لدستور يقرر أسلوب الحكم حسب مفاهيم تلك القيادات. من هذا المنطلق جرت محاولات للتقارب والتنسيق بين الأحزاب المؤمنة بالعلمانية لمناقشة و تحديد الظروف المؤاتية لإدارة البلاد وإقرار مبدأ فصل الدين عن الدولة الذي أيدته بعض الأحزاب الكردية. وقد تم فعلا التنسيق في هذا الشأن بين بعض الأحزاب والتجمعات السياسية المؤمنة بالعلمانية، منها: الديمقراطيون المستقلون، الوطني الديمقراطي، العربي الاشتركي، الحزب الشيوعي العراقي. ويعتبر الأخير ذو قاعدة شعبية قديمة أنتابها الضعف في المدة الأخيرة. أما الفئات و الأحزاب التي تؤمن بعدم فصل الدين عن الدولة، فهي تتمثل: أولا؛ بجماعات المذهب السني مثل مجلس علماء المسلمين (ذي العلاقة بجماعة الأخوان المسلمين)، السلفيين (الذين يشاع عن تأثرهم السياسي بأفكار القاعدة)، والحركة الصوفية. وثانيا؛ بأحزاب وهيئات المذهب الجعفري مثل جماعة المجلس الأعلى للثورة الإسلامية (ويتبعهم فيلق بدر)، حزب الدعوة (وأتباعه من مقاتلين)، جماعة مقتدى الصدر (ويتبعهم جيش المهدي)، والأهم؛ القيادة الروحية للحوزة الدينية الشيعية والتي من أبرز علمائها أية الله علي السيستاني الذي يعتبر المرجع الأعلى في توجيه شؤون الطائفة الجعفرية الشيعية على المستوى الإجتماعي السياسي. والذين التقوا السيستاني من رجال السياسة العراقية يصفونه بالداهية الملم باللعبة السياسية والمدرك لظروف الشارع العراقي والتأثيرات العاطفية عليه. والسيستاني يحظى باحترام غالبية أبناء الطائفة الجعفرية وبعض قيادات الطائفة السنية في العراق والإصلاحيين في إيران، في حين يدعم المحافظون الإيرانيون حركة مقتدى الصدر بسبب مناوءته العلنية مؤخرا للتوجه الأمريكي في العراق، للإفادة من ظروف عدم الإستقرار الذي يثيره في الشارع العراقي.

في بغداد تكثر القصص والأحاديث عن براثن الإستعمار الأمريكي وعن عيوب تشكيلة الحكومة التي عينها والتي لا تمثل بمجملها إلا الوافدين إلى البلد ممن هجروه والطامعين بالمكاسب ومنهم أصحاب المصالح المنزوين تحت لواء أمريكا لتنفيذ مخططاتها..و.و.ألخ. ويختلط في هذه القصص الواقع بالخيال مع التركيز على الأشخاص وخصوصياتهم وبعض الأحداث بشيء كبير من المبالغة والإبتكار مع أقل درجة من التحليل من أجل إثبات وجهة نظر معينة. وغالبا ما تتضمن مثل هذه الأحاديث درجة عالية من التشويش والتشكيك بفاعلية كل حدث أو نزاهة ومقدرة كل من دخل معترك العمل السياسي أو الإداري خلال هذه المدة العصيبة من تأريخ البلاد، بدون أي دليل أو مراجعة جدية لخلفية كل منهم. مما لا شك فيه أن هناك هفوات في مسيرة العمل الجاري على مختلف المستويات، كما أن هناك عدداً من أعضاء الحكومة القائمة ممن له أهدافه ومصالحه الخاصة التي يبتغيها و يهتم بها حتى لو لم تصب بمجملها في مصلحة الوطن، ومنها القبول المطلق بمبدأ العولمة الذي تتبناه أمريكا وبتطبيع العلاقة مع إسرائيل حتى قبل حل معضلة القضية الفلسطينية. إلا أن هذا لاينفي وجود عناصر نزيهة مؤمنة بخدمة الوطن تساهم بتوجيهاتها وإمكانياتها الإدارية في هذا المجال بجدية فائقة. فالأولى بالمتعلمين عدم محاولة إيجاد الثغرات في كل قضية بدلا من النظر إلى الحكومة القائمة بأنها بداية لابد منها في هذه الظروف، وأن محنة بناء الوطن مهمة معقدة وشاقة تتطلب التآزر والتسامح والتوافق والإدراك والصبر والهدوء في التعامل. وحين يتناسى البعض هذه الأمور وتطلب إليه إبداء الرأي بالعمل البديل، لا تجد أي جواب شاف. ومع هذا، هناك من يبدي جدية في البحث والتحليل لجوهر المشكلة أو في الحديث عن الوضع العراقي بإسلوب بناء خال من النقد والتجريح الذي يبديه البعض ربما لمجرد التنفيه عن الخاطر بسبب ما أختزن في النفوس من إحباط وتحجيم للفكر خلال عهد صدام. والمقولة الأخيرة تنطبق على سلوك الناس بصورة عامة في الشارع البغدادي إذ إختفت بعض الشيء كلمات المجاملة ومتطلبات السلوك الإنساني اللطيف الذي عرف به المجتمع البغدادي في العهود الماضية. مما لا شك فيه أن تواجد مظاهر الإحتلال المتمثلة بالآليات العسكرية الأمريكية وهي تجوب شوارع العاصمة أثر بذلك. ولكن من غير الوارد أن يتغير سلوك المجتمع الأصيل خلال فترة سنة واحدة، كما أن ظروف الأحتلال يفترض أن تقوم أخلاقيات المجتمع وتسهم بتوحيده لمجابهة التحدي الأجنبي. وما يبشر بالخير، أن المثقفين وشريحة واسعة من المتعلمين، مازالت تتحدث بلغة المدرك لإشكالية البلد، وإن فضل بعضهم الإنزواء أو عدم بيان الرأي إلا في الدواوين الخاصة، تجنبا لرد فعل لا إنساني أو لتلافي الإسترسال في حديث لا طائل منه.

سلوك الناس وأوضاعهم في المدن الأخرى يختلف بعض الشيء عما هو في مدينة بغداد. ففي مدينة العمارة، وهي من المدن الكبرى في البلاد، تجد الناس أكثر هدوءاً ووداعة في الطرقات، حيث تغلب على سلوكهم مسحة الود العفوي المتمثل بإلقاء التحية والمجاملة في التعامل. وقد يكون السبب الرئيس لهذا السلوك، إبتعاد تلك المدينة عن عاصمة السلطة وهواجسها في الماضي، وكذلك التقارب الطبقي معيشيا والتجانس بين شرائح المجتمع وإندماج تطلعاتها للتآلف بين الغالبية المنتمية للطائفة الجعفرية وبين الأقلية من الطوائف الأخرى التي سكن أجداد أبنائها المدينة منذ تأسيسها ولعقود خلت. كما أن جنود الاحتلال في المنطقة هم من البريطانيين المتواجدين بأعداد قليلة وآليات عسكرية محدودة لندرة حوادث الكفاح المسلح. والظاهرة التي تجلب الإنتباه تتمثل بتعدد مراكز الإسلام الجعفري المسيس وصور قادته المختلفين تزين واجهاتها والشوارع المهمة مع عبارات التبجيل لآل بيت الرسول ومقتطفات السور القرآنية التي تدعم الفكر السياسي للفقه الجعفري. بالطبع أن مثل هذه المظاهر تتواجد في بغداد أيضا بشكل واسع في المناطق التي تقطنها بشكل مكثف العائلات الجعفرية وتحوي عدداً وافياً من المساجد الشيعية والحسينيات التي تمثل مراكز تجمع أتباع الفقه الجعفري، مثل ضاحيتي الكاظمية والكرادة الشرقية. أما في المناطق الأخرى من بغداد، خاصة ذات الكثافة السكانية العالية من أبناء الطائفة السنية مثل ضاحية الأعظمية وبعض حارات الكرخ والعامرية، فالمظاهر الدالة على توجه الإسلام السياسي تتمثل بالملصقات الحاوية على الآيات القرآنية ومقتطفات من أقوال الرسول وبعض فقهاء المذهب السني، في حين تتحدث مكبرات الصوت من مآذن جوامعهم ومساجدهم عن آراء السلف بشؤون الدولة والمجتمع. وفي جميع الأحوال يتحسس المرء الزخم الديني المفتعل يعم الحياة العامة وحتى محيط العمل إلى درجة تجعل الإنسان يتحفظ بحديثه تحاشيا تأويله إلى تصريح يتنافى وتعاليم الدين أو نقد لأحد قادته المنادين بعدم فصل الدين عن الدولة. ولابد من التأكيد أن مثل هذه المظاهر والأجواء لم يكن متعارفاً عليها في سبعينيات القرن الماضي وقبل أن يتجلبب صدام رداء الدين بصورة مفتعلة لدعم سلطته وينكل بعدد من فقهاء المذهب الجعفري مما أجج النعرات وردود فعل تجذرت سلبياتها إلى حد كبير في المجتمع. وما ينطبق على هذه المظاهر من حيث شدة تأثيرها السلبي على الناس، ينطبق على موضوع الحجاب و وسائل اللهو البريء في المنتديات الإجتماعية. فحجاب المرأة أصبح شائعا بشكل كبير وأحيانا صورياً، يدعمه رجال الدين من الطائفتين السنية والشيعية في مناطق العراق التي يمثلون العرب فيها الأكثرية. ولطالما حدثت إستفزازات من قبل بعض الأفراد وعابري السبيل للنساء والفتيات غير المتحجبات، حتى لو كن غير مسلمات، في الشوارع والمكاتب والمدارس وفي وسائل المرور العامة. ويتضح من التلفزيون وما تنقله الأحاديث أن مثل هذه الظاهرة غير واردة في مناطق كردستان العراق، إذ تبدو ظروف الحياة طبيعية هناك كما كانت عليه في الماضي، بما في ذلك الإختلاط بين الجنسين في المحلات العامة والنوادي.

العراق بين عقلين العقل (البراني) والعقل (الديواني)

سعدون محسن ضمد

الشعب الذي لا يستطيع أن يتجاوز عثراته، لا يمكن له أن يكون شعباً ناهضاً، لأنه يكرس أخطاءه ويعبر عن عدم أهليته للانطلاق باتجاه المستقبل. إننا الآن كعراقيين نوشك أن نتقيأ من شدة ما ندور على انفسنا ونحن نحاول تدارك الموقف، والخروج من الأزمة، ذلك أننا لا نزال نكرر نفس هفواتنا، ونقع بصورة غريبة بذات الفخاخ التي كنا قد خرجنا منها قبل وقت قريب.

طوال ثلاثة عقود خضنا مع صدام حسين تجربة فريدة من نوعها، تجربة مليئة بالدم والقمع والاضطهاد. وكان علينا ونحن نخرج من أزمتنا معه وحتى قبل أن نضمد جراحنا أن نحسب المعادلة التي مكنته منا، أن نقرأ المفردات التي جعلته يخوض بنا غمار كل تلك الحروب والمآسي والفجائع. من أجل ان نكون مهيئين حقاً لتلافيه، وايضاً من اجل أن نكون قادرين على دفن ملامحه الكريهة إلى الأبد. غير أن المثير للخوف هو أن خطابنا السياسي - كشعب - لا يعد بتجاوزنا لتلك الأخطاء، ولا يبشر بنجاحنا في عملية اكتشافنا لحقيقية أننا أمة تكرر أخطاءها، ذلك أن صدام لم يجر علينا غير وبال خطأ واحد كان هو الجذر الحقيقي لكل الفجائع التي منينا بها معه، فقد كان الرجل بدوياً بكل معنى الكلمة، وهو فوق ذلك بدوي لم يستطع أن ينتمي للمجتمع الحضري بشكل حقيقي، ومن هنا كان لا يستطيع أن يفكر على وفق العقل الحضري، أي أن إطاره المرجعي الذي كان يرجع اليه اثناء تقييمه للواقع، هو إطار مرجعي بدوي فقير وبسيط، إطار مرجعي يسير على خلفية (ديوان) القبيلة التي يؤمن بقيمها وتقاليدها ومن ثم معاييرها، إطار مرجعي يمتلئ بمفاهيم تناسب المجتمع القبلي وتتحدد بمحدداته، ما يجعله بالتالي صاحب عقل يمكن لنا أن نسميه بـ (العقل الديواني) عقل يرى الواقع من خلال مرشحات الفهم البدوي أو القبلي للأمور، فبحسب علي الوردي أن (معايير التفكير وقوانينه، في الواقع، تؤخذ من مصطلحات المجتمع وتبنى على اساس قيمه وتقاليده) (الوردي د. علي، شخصية الفرد العراقي ص٣١)، إن العقل الذي ينتجه (الديوان) العشائري الذي هو الوريث الريفي (للمضيف) البدوي هو عقل يصلح لقيادة القبيلة وينجح في حدودها الضيقة، فمثل مجتمع القبيلة وهو يجوب الصحراء لا بد أن يكون مضطراً لصياغة اطار مرجعي يحفظ له تماسكه كمجتمع صغير، يعاني بيئته القاسية ومن ثم لا ينتمي إلا لنفسه، وهو لذلك يجعل من الانتماء للقبيلة فوق كل انتماء، ويفهم أن المكاسب المادية هي عبارة عن غنائم يجب تقسيمها على افراد القبيلة، وليس على غيرهم، ولذلك فقد عجز صدام عن قمع شعوره بالانتماء لقبيلته طويلاً، ولم يستطع بنهاية الامر أن ينتمي للحزب والدولة بصورة مجردة، بل راح يحولهما لقبيلة كبيرة من أجل أن يتلافى الأزمة التي كانت تسببها له قيمه ومعاييره الحقيقية، وبالتالي صار من الممكن أن يتعامل مع مفهوم المواطنة تعاملاً مريحاً بالنسبة له، بعد أن صار هذا المفهوم يعني ويساوي لديه مفهوم (ابن العم) وهكذا راح يوزع غنيمة السلطة على مواطنيه بحسب المعيار الذي يوفره المثل القائل: (أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب) وليس بحسب أي معيار حضاري آخر. لقد عجز صدام بسبب العقل (الديواني) الذي يفكر على اساسه من أن يتعامل مع ابن الجنوب، أو ابن الشمال بنفس المستوى الذي يتعامل من خلاله مع ابن قبيلته، لأن من العار- بحسب معايير التفكير لديه- أن يفعل ذلك (الشجرة التي لا يستظل بها أهلها تستحق القطع)، على هذا الاساس نستطيع أن نفهم بالجملة، الخطاب الصدامي طوال ثلاثة عقود، ونستطيع من ثم أن نراه منسجماً مع نفسه ونحن نجده يقود العراق بالاستناد إلى العنتريات والعنجهيات والرجوليات الفارغة، وكانت مفردات العقل الذي يفكر على اساسه واضحة في خطابه السياسي، ويكفينا أن نشير إلى رمزية (الشارب) بالنسبة لهذا العقل، حيث أنها تمثل بالنسبة له قيم البطولة والرجولة والشجاعة، ولذلك فقد كان مقطوعاً عن العالم الخارجي وهو يطالبه بأن (تهتز شواربه)، لقد كان يتساءل مستنكراً عن الزمن الذي ستهتز به هذه الـ (شوارب). ومن هنا يمكن أن ندعي بأن صدام وعندما ظهر على شاشات الفضائيات ليدافع عن نفسه أمام قاضي التحقيق، لم يكن يمارس أي عملية دجل أو تمويه، بل كان يعني ما يقول،إذ هو يعتبر أن احتلاله للكويت عبارة عن رد لاعتبار للعراقيات. فهذا التبرير يعتبر منتهى الانسجام بالنسبة للعقل (الديواني) العقل الذي يحسب أن الدولة هي في نهاية الامر ليست سوى (عشيرة) كبيرة إنها القبيلة التي يجب أن يدافع عن نسائها، وفي حال أن هؤلاء النسوة تعرضن لاعتداء أفراد قبيلة أخرى، فليس أمام الرئيس إلا الغارة، التي يمكن لها وحدها أن ترد الاعتبار وتمسح العار.

إن ما يدعونا اليوم للاعتقاد أننا امة تكرس أخطاءها هو أننا لم نفهم معطى الفشل الصدامي ذاك، المعطى الذي يقول: ان دولة يراد لها أن تكون ذات سيادة حقيقية قادرة على تجاوز الازمات المعاصرة، لا يمكن لها أن تقاد بعقل (ديواني عشائري). ذلك أننا الآن وببساطة بالغة نريد أن نستبدل العقل (الديواني) بعقل (براني) عقل لا يستند لمعايير الديوان الذي هو منتدى القبيلة البدوية، بل يستند لمعايير (البراني) الذي هو منتدى المؤسسة الدينية والذي يشابه من جهته الديوان العشائري من نواح كثيرة، فهو ايضاً عبارة عن مجتمع محدود وضيق، ف (برانيات المراجع) (البراني هو المكان الذي يجلس فيه المرجع الديني ويستقبل فيه مريديه) لا تعدو أن تكون في حقيقة أمرها غير مؤسسات مغلقة على نفسها منذ مئات السنين، وبالتالي فهي في واد والامم والشعوب في واد آخر. وأن المفاهيم التي يزدحم بها إطار المرجعي هي مفاهيم لا تتلائم وروح العصر، وهي من هذه الجهة ايضاً لا تصلح لقيادة الدولة، ذلك إن عقل المؤسسة الدينية (العقل البراني) هو في الحقيقة وببساطة بالغة عقل مؤسسة دينية وليس عقل دولة. ومن الطبيعي جداً أن يكون هذا العقل - وطوال رحلته في تشكل - المفاهيم التي تحقق له الاستقرار والانسجام مع الذات، المفاهيم التي تنطلق من همومه اليومية، وجملة ما يرشح عن ممارساته المتكررة، التي هي في نهاية امرها ممارسات درسية معرفية تتأطر بإطار نصوص الماضي البعيد التي تنتمي بدورها لأبعاد ذلك الماضي، وتتماهى معه. إن عقل المسلم لا يمثل بالضرورة عقل الاسلام، ذلك أن العقل الفردي أو المجتمعي وهو يتعامل مع موضوعة الدين - أي دين - فانه يفعل ذلك منطلقاً من ذاته أولاً، فهو يأخذ من الفكر الديني باعتباره معطى خارجي، فقط ما لا يتقاطع مع معاييره الفكرية الاجتماعية، ومن هنا كان المجتمع البدوي المسلم لا يرى بأساً بالغارة على القبائل الاخرى المسلمة وسلبها قوت يومها. إن المفاهيم التي يزدحم بها الاطار المرجعي (للعقل البراني) هي مفاهيم مسلمة وليست إسلامية بالضرورة، أو هي لا تعبر عن فهم الاسلام الحقيقي، لذات المفاهيم، فالإسلام جاء بمفهوم عن المرأة يختلف عن المفهوم الذي يفهمه المسلمون - معظم المسلمين خاصة رجال الدين منهم - الإسلام لا يميز على صعيد الجنس إلا في حدود التقنين للممارسات الاجتماعية. ولكن المسلمون كانوا قد مارسوا ولزمن طويل عملية انتقاء للنصوص التي تبرر التمييز الذي يؤمن به بالنسبة للجنس، ولذلك نستطيع أن نفهم السبب الكامن وراء انتشار جرائم الشرف وسط مجتمع مسلم يحرم بشدة مثل هذه الجرائم، بل ويتشدد بصورة خاصة من جهة هذا النوع بالذات، حيث يجعل من عملية اثبات الجريمة أمراً شبه مستحيل. إن انتشار مثل هذه الأمور تكشف لنا أن عقل المسلم يمارس عملية انتقائية اثناء ايمانه بالإسلام. على هذا الاساس نقول: أن تعامل المسلمين مع الواقع الخارجي لا يمثل بالضرورة تعامل الاسلام معه. والمسلم لا يفهم الأمور كما يفهمها الإسلام، وبالتالي لا يحق للمؤسسة الدينية أن تدعي أنها أنجزت الفهم الكامل والواقعي للإسلام، وبالتالي فهي تستطيع التعبير عنه بدقة بالغة، خاصة وأن نفس المؤسسة تؤمن بأن هذا الدين ممتد وهو يصلح لجميع الازمان. لقد وقعت مؤسستنا الدينية قبل وقت قريب وسط أزمة حقيقية كان سببها الرئيس هو أن مفاهيمها مصاغة على وفق الزمن الماضي، وأن فهمها للإسلام هو في حقيقة أمره فهم قاصر. وكانت حيثيات هذه الازمة تتلخص بأن الحملة التي قادتها أمريكا ضد صدام هي في حقيقة أمرها حملة يقوم بها الكفرة ضد المسلمين، وبالتالي فعلى هذه المؤسسة ومن اجل أن تكون منسجمة مع ذاتها أن تقف بكل ثقلها المعنوي والمادي ضدها، غير أن المربك في الأمر أن هذه المؤسسة لم تقف مكتوفة اليد ازاء هذه الحملة، بل أنها شاركت بها مادياً ومعنوياً، مع الجهة الكافرة وضد الجبهة المسلمة - بحسب معاييرها الفكرية - ما جعلها عرضة للانتقاد، وفي الحقيقة فإن السبب الكامن وراء مثل هذا الانشطار بين الإيمان والممارسة، يرجع إلى أن مفاهيم مؤسستنا الدينية التي تقيس من خلالها الواقع الذي تعيشه، هي مفاهيم تحتاج لتأصيل جديد، فمصطلح الكافر مصطلح إسلامي غير أن الفهم المصاغ بحقه في فكر المؤسسة هو فهم قاصر، وحتى مصطلح المسلم هو كذلك، ما جعل نفس المؤسسة تعجز عن معاملة الحملة الامريكية ضد صدام بحسب مفهوم (الكفر)، والدفاع الصدامي بحسب مفهوم (الإسلام)، لقد عجزت المؤسسة أن تكون منسجمة مع ذاتها وايمانها، لأنها لم تستطع أن تقتنع أن دفاع صدام عن نفسه، يعني ويساوي الدفاع عن بيضة الدين، لأن دخول صدام في الإسلام بدا مشبوها وغير مقنع، وبالتالي فنحن بحاجة لإعادة صياغة لمفهوم الـ (مسلم) ونفس الأمر يقال عن المفهوم المقابل له الـ (كافر)، خاصة إذا علمنا بأننا كمسلمين محاطين وفي معظم الدول العالمية بـ (الكفرة الحربيين) الذين يستحقون القتل والسلب والنهب بحسب الفقه الذي انتجه العقل (البراني)، ولكن عجز مؤسساتنا الدينية عن شرعنة مثل هذا القتل يكشف عن أنها واقعة في الحيرة إزاء مفاهيمها التي باتت قديمة جداً.

نريد أن نقول: إن المفاهيم التي يحتكم اليها الإطار المرجعي للعقل (البراني) هي في الحقيقة وليدة المنطق الارسطي، المنطق الذي يؤسس للحكم على الواقعة بالاكتفاء بمقدمتين، في إطار قياس عفا عليه الزمن. القياس الذي استخدمه ارسطو قبل آلاف السنين، قياس ينسجم مع ذلك الزمن الغابر، ولا ينتج إلا مفاهيما تليق بالماضي البعيد جداً. ونحن الآن في وقت نحتاج فيه للكثير من المعطيات والمقدمات التي يجب أن نسخرها للحكم على واقعة واحدة. إن العقل السياسي الآن وهو بصدد التعامل مع الوقائع الدولية يسخر كماً هائلاً من الوثائق والملفات والمقدمات والدراسات التي تريد منها أن تعطيه صورة أكثر وضوحاً للمشهد من اجل أن يكون قراره صائباً ودقيقاً. فكيف يمكن لنا أن نجابه هذا العقل، بعقل يستند للمقامات الثنائية، التي لا تعطيه إلا صورة ببعدين فقط وفقط. هذا العقل الذين ينتج أحكامه وفق قياس يقول: أن مثل أمريكا كافرة، وكل ما يأتي من الكافر لا يجوز التعاطي معه، إذن فكل ما يأتي من مثل أمريكا لا يجوز التعاطي معه. إن مثل هذا العقل، لا يمكن له أن يكون ناجحاً في الأداء السياسي للعصر الراهن، ولذلك نحن نرى بوضوح كيف أنه يفشل في تفعيل قراراته، وهو بالتالي وعندما ينزل للواقع الذي يحتكم للمنطق الحديث يضطر للتعامل مع معظم الاشياء التي تأتي بها مثل أمريكا الكافرة.

لقد حاولت الجمهورية الاسلامية في ايران أن تتعاطى سياسياً وفق أحكام هذا العقل، وهكذا اعتبرت في يوم من الأيام أن أمريكا شيطان لا يجوز التعامل معه ابدا، وحسبت في ذلك الوقت أن الأمر يمكن له أن يحسم بهذه البساطة، غير أن مجريات الاحداث أثبتت لها حاجتها إلى استبدال عقلها الذي يتولى السلطة، وهي لذلك تسير الآن وفق منطق لا يستطيع أن يفهمه عقل مؤسستنا الدينية (العقل البراني)، الذي يريد أن يتولى زمام الامر بيننا الآن.

إن هذا المقال لا يبرر للعلمانية، وهو حتماً لا يريد (أمركة) الدولة العراقية، ولا يتعارض مع الفكر الاسلامي الذي يريد أن يقود الشعب العراقي. لكنه فقط يريد أن يحرم تكرار الخطأ، يريد أن يدعو لمنع العقول غير المهيأة للقيادة من تسنمها، لأنها ستكون قاصرة عن الأداء الأمثل، وهي إذا تسلمت زمام الامور على حالها الذي هي عليه فانها ستعيش ونعيش معها - على مستوى الفكر والاداء - زمناً أصبح ماضياً بعيداً.

إن هذا المقال يريد أن يسمي عقل مؤسستنا الدينية بالعقل (البراني) لأنه يعتقد بأنه قاصر عن فهم واستيعاب الامتداد الإلهي للإسلام، وبالتالي فهو ليس عقلاً إسلامياً، إنما هو عقل مجتمع إسلامي معين ومحدد، وبالتالي فلا يجوز لهذا العقل أن يحمل الإسلام ويحملنا تبعات أخطائه في الفهم والتقييم، وإذا أراد أن يفعل ذلك فيجب علينا أن نمنعه، ويجب علينا أن نمنعه، ويجب علينا أن لا نفعل كما فعلنا سابقاً مع (العقل الديواني).

إذن ومن أجل أن لا نلدغ من الحجر نفسه الذي لدغنا منه سابقاً. نقول: أن على العقل (البراني) أن يعيد تأهيل نفسه من أجل أن يكون حقاً على قدر المسؤولية، وايضاً من اجل أن يكون اقدر على رؤية الحقيقة، حقيقة الصراع السياسي الآن، حتى لا يكون زمام أمر هذا العقل بيد غيره دون أن يشعر، وحتى لا يكون مجرد لعبة بيد الكبار، وبالتالي لا يحقق من خلال سعيه المليء بالذبح والدماء إلا غايات الأعداء الواقفين خلف كواليس الحدث.